بين المنهجية والأبستمولوجيا: مقاربة الأديان وفقا للغزالي أو كيفية معرفة الآخرين؟

Between Methodology and Epistemology : Approaching Religions According to Al-Ghazali or How to Know Others?

الاب : عمانئويل بيزاني
مدير مركز الدراسات الشرقية للآباء الدومنيكان - القاهرة

Father: Emmanuel Pisani
Director of the Dominican Center for Oriental Studies – Cairo

مساء الخير لكم جميعًا. شكرًا جزيلًا للدكتور العزيز أمير على كلماته الرقيقة والأخوية. إنني فخور وسعيد جدًا هذا المساء بمشاركة جانب من أبحاثي حول الغزالي في أكاديمية بغداد. موضوع كلمتي في هذا المساء هو بالضبط: بين المنهجية والإبستمولوجيا: مقاربة الأديان وفقا للغزالي أو كيفية معرفة الآخرين؟ كان الأب أنواتي، مؤسس المعهد الدومينيكي للدراسات الشرقية في القاهرة، يحب مقارنته بالقديس توما الأكويني. بالنسبة لنا، كالدومينيكين هذا يعبر كثيرًا عن عظمة فكره. لقد دأبت الفلسفة الغربية الحديثة تحت لواء الفيلسوف الفرنسي ديكارت، على وجه الخصوص على التأكيد على مسألة المنهج. فهو ضمانة للموضوعية العلمية. قد يكون هذا نوعًا من الوهم، لأن المنهج لا يخلو أبدًا من حدود، ولكنه يوفر أساسات للموضوعية في المعرفة. ما أريد أن أظهره لكم هذا المساء هو أن هذه الفكرة لها سوابق في الشرق، وخاصة في التراث الإسلامي. على غرار ما تم تقديم ابن خلدون كونه رائدًا في النهج التاريخي النقدي، أريد أن أظهر أن الغزالي كان رائدًا في علم اجتماع الأديان. الغزالي مهتم جدًا بمسألة المنهج في معرفة الآخر. لهذا العرض، أريد أن أستند إلى كتاب

مهم جدًا للغزالي: وهو سيرته الذاتية «المنقذ من الضلال». على حسب معرفتي، لم يُقرأ هذا الكتاب من هذه الزاوية قط، على كل حال لم ير فيه علماء الاجتماع سابقًا لتخصصهم. هذه المسألة المتعلقة بموضوعية المعرفة وضرورة اتباع منهج دقيق تندرج في فكر الغزالي في إطار مشروع عقدي وسياسي في سياق كان يتسم بالاستخدام المتزايد للتكفير.

المسألة المنهجية مرتبطة بمسألة إبستيمولوجية، بواقع نظرية المعرفة: لا أستطيع أن أحكم على الآخر إلا إذا كنت أعرف حقًا من هو. عندما نقرأ السجلات التاريخية، نرى وجود خلافات بين مختلف فرق الإسلام. وكانت إشكالية الغزالي هي: كيف يمكن استعادة السلام؟ كيف كان يمكن تهدئة الأجواء عندما كان هناك الكثير من الاضطرابات؟ كيف يمكن استعادة الوئام وتحييد التكفير؟

وبالتالي مسألة الكيفية مهمة. إن مسألة «كيف؟» هي بالتحديد مسألة منهجية. عندما نقول كيف، فنحن نشير إلى مسألة المنهجية.

بحسب الغزالي قبل استخدام التكفير، يجب أن تتأكد من معرفة الشخص الذي تكفره. إذًا، السؤال هو: كيف تعرفه؟ كيف يمكنك معرفة ما يعتقده حقًا؟ كيف يمكنك أن تتأكد من أنك لا تتكلم عنه بالهراء؟ كيف يمكنك أن تتأكد من عدم وجود أحكام مسبقة وأفكار مسبقة لديك، وأنك لست مخطئًا في حقه؟ هذه المسائل هي مسائل الغزالي، وللإجابة عليها يقترح منهجًا اجتماعيًا.

Une méthode sociologique

يقدم الغزالي إجابات على كل هذه الأسئلة التي تهم علماء الاجتماع اليوم بشكل خاص. وبعبارة أخرى، يطور الغزالي منهجية للتعرف على الآخرين قبل إصدار الحكم عليهم. يؤكد الغزالي على ضرورة معرفة كل شيء عن علم ما أو عقيدة ما قبل رفضه. لا يمكنك أن تنتقد دون أن تعرف. لا يمكنك أن تنتقد علم الكلام دون أن تعرف علم الكلام؛ لا يمكنك أن تنتقد الفلسفة دون أن تعرف الفلسفة، لا يمكنك أن تنتقد الباطنيين دون أن تعرفهم وهكذا. إلى هذا الحد: ممتاز. كل شيء على ما يرام. لكن السؤال الآن هو، ما هي المعرفة؟ أو بشكل أكثر دقة، كيف نعرف؟ وها هو المجال الذي نشهد فيه تطور منهجية لدراسة المعارف المتنوعة، من علوم وتخصصات وفلسفات وأديان.

والمصطلح الذي يستخدمه الغزالي لهذه المنهجية، لدراسة الأديان، والتفكير في الأديان هو مصطلح الاستبصار. إذا كان هذا المصطلح يُستخدم اليوم في علم النفس، فهو في فكر الغزالي، يدل على قدرة على بلوغ معرفة عميقة، تتجاوز الظواهر السطحية.

الطُرق المُتعددة للغزالي

الملاحظة الأولى الجوهرية التي أرغب في التأكيد عليها هي أن الغزالي يُكثّر من الطرق. لمقاربة معتقدات المذاهب الدينية، سواء أكانت مسلمة أم غير مسلمة، فإن الغزالي يُضاعف من المناهج: اسمحوا لي أن أقتبس المقطع الأساسي من مقدمة «المنقذ من الضلال».

«ولم أزل في عنفوان شبابي - منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين - أقتحم لُجّة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجسور، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشف أسرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع، لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته، ولا ظاهريًا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته، ولا فلسفيًا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته، ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته، ولا صوفيًا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته، ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته، ولا زنديقًا معطّلًا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته في تعطيله وزندقته.»

في هذا المقطع، يُعبر الغزالي عن عدة أفعال: نجد فيه فكرة المراقبة، والقراءة، والسماع. هذه الأعمال ضرورية للفحص، والتدقيق، والتغلغل في معنى العقيدة الدينية ومعرفتها. واللافت للنظر أن الغزالي أدرك أن المعرفة المتعمقة بالأديان تستلزم الجمع بين طرق منهجية.

لماذا يصر الغزالي على المنهجية في معرفة العقائد؟

وقد سبق أن كتب آخرون عن الأديان أو المذاهب.

ولكن السؤال هو: كيف درسوا ليقولوا ما قالوه؟

بتأكيده على أهمية المنهجية في قيمة ما يقال،

فإنه يستطيع أن يقدح في أعمال الآخرين.

فيقول الغزالي: ما تقوله ليس جيدًا، وما تقوله خطأ.

فما هي نتيجة هذا النقد؟

يقول الغزالي: بالتالي، لا يمكن استخلاص نفس الاستنتاجات.

يمكننا أن نوجز التفكير والمنهج بالطريقة التالية:

إذا كفرتم جماعة ما، فيجب أن تتأكدوا من أن معرفتكم بهذه الجماعة ممتازة.

ولكن، في الواقع، لا توفرون لأنفسكم الوسائل لمعرفة الجماعة بشكل عميق.

وبالتالي، تخاطرون بإصدار حكم خاطئ.

أما فيما يتعلق بالتكفير، وبالنظر إلى خطورة تبعاته على الفرد أو الجماعة، فإنه لا يمكن السماح بأي مخاطرة.

يجب أن يكون الحكم مؤكدًا وغير قابل للتفسير الملتبس.

يكتب:

« لا أغادر باطنيًا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته... »

تظهر الأفعال التي يستخدمها أن العمل صعب:

أحرص، أجتهد، أتفحص، أتجهم.

نجد أيضًا فكرة القيام بالتحقيق من خلال الفعل يتجسس.

هناك فكرة المراقبة والتحقيق والتجسس.

فهو يراقب دون أن نعرف أنه يراقب.

كأنه يجري تحقيقًا بوليسيًا.

لماذا هذا مهم؟

لا يكتفي الغزالي بالاستعادة الموضوعية بالشهادة.

لا يكتفي بما يقوله الباطني.

إنه يريد التحقق مما إذا كان ما يفعله أو ما يؤمن به يطابق ما يقوله.

من هذه الزاوية، سيراقب أعضاء طائفة أو تيار ديني.

دقة هذا الجمع مهمة:

لا يمكن إبداء رأي نهائي استنادًا إلى مراقبة شخص واحد.

يجب التحقق من إمكانية تعميمها.

وبالتالي فإن الغزالي سيلحظ بشكل مباشر عدة أشخاص وليس شخصًا واحدًا فقط.

وباختصار، فإن الطريقة الأولى للتعرف على الشخص الآخر

هي ملاحظته، وفحصه، ومراقبة ما يفعله، وإجراء مسح ملاحظ.

لكن الملاحظة ليست كافية.

عليك أيضًا دراسة الأديان والمذاهب. لذا عليك أن تقرأها وتدرسها.

والغزالي أراد أن يزاحم أفضل العلماء وأفضل الخبراء: أي أنه أراد أن يعرف مذهبًا من المذاهب كما يعرفه أفضل

العلماء والمعلمين لذلك المذهب.
كيف يفعل ذلك؟
يدرس النصوص القديمة والجديدة على حد سواء،
ويأخذ بعين الاعتبار إمكانية تطوير المذهب.
كما رأينا، فإن الأفعال التي تدل على المراقبة والقراءة والاستماع تشهد على صعوبة مثل هذه الدراسة، ولكنها تدل أيضًا على إرادة وعزيمة الغزالي للوصول إلى هدفه: وهو الموضوعية.
فهل نجح؟
إنه يعتقد ذلك، فهو يكتب مثلًا في موضوع علم الكلام أنه قرأ مؤلفات العلماء، وفي النهاية كتب هو نفسه مؤلفات في علم الكلام.
يقول:
ثم إني ابتدأت بعلم الكلام، فحصلته، وعقلته، وطالعت كتب المحققين منهم، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف، فصادفته علمًا.
حول موضوع التعاليمين، يكتب: « فابتدأت بطلب كتبهم وجمع مقالاتهم. وكذلك قد بلغني بعض كلماتهم المستحدثة التي ولدتها خواطر أهل العصر، لا على المنهاج المعهود من سلفهم. فجمعت تلك الكلمات، ورتبتها ترتيبًا محكمًا مقارنًا للتحقيق
وفي بقية النص، يقول إن عمله واضح ودقيق ودقيق إلى درجة أنك تظن أنه أصبح من المتكلمين!
هنا، يستخدم الغزالي نقدًا موجهًا إليه ليبرر، على العكس، أنه يتقن الآن إتقانًا تامًا التيار الذي درسه. إذا خلصت الآن إلى تلخيص منهجيته، نجد كلًا من المراقبة والدراسة. هل يكفي ذلك لضمان معرفة موضوعية لتيار أو دين ما؟ إجابته سلبية. لا، لا يكفي ذلك.
تحتاج أيضًا إلى الاتصال بأفراد هذا المذهب. عليك أن تتواصل معهم. كيف نتواصل؟ كيف يمكنني التواصل مع شخص لا ينتمي إلى عالمي؟ مع من لا يدين بديني؟ مع من ينتمي إلى ثقافة مختلفة؟ هنا مرة أخرى، يقدم لنا الغزالي بعض النصائح.
يقول في «المنقذ»: إن له عدة لقاءات ومحادثات. ويضيف: مع أشخاص مختلفين. لأي أسباب تعد هذه الدقة مهمة؟ يهدف الغزالي إلى التحقق من فهمه، والتأكد من دقة فهمه. وأنا شخصياً أرى أن هذا التعليق مهم جدًا. لماذا؟ من الممكن أن يكون العالم الذي تستجوبه ليس عالمًا جيدًا. قد يدعي معرفة، ولكن الواقع

أنه لا يعتبر كذلك. على العكس، قد تكون أقواله غير محافظة في دينه، وقد تعتبر حتى خاطئة. ولكن كيف يمكن معرفة ذلك عندما لا تكون أنت جزءًا من هذا التيار؟ بالنسبة للغزالي، نظرًا لهذه الإمكانية، يجب التحقق من فهمه عند عدة أشخاص. هذا هو النص من «المنقذ من الضلال» حيث يتناول الغزالي هذه المسألة بالتحديد:

«بل كنت قد سمعت تلك الشبهة من واحد من أصحابي المختلفين إليَّ بعد أن كان قد انضمَّ إليهم، وانتَحلَ مذهبهم، وحكى أنهم يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم، بأنهم لم يفهموا بعد حجتهم. ثم ذكر تلك الحجة وحكاها عنهم، فلم أرضَ لنفسي أن يُظنَّ بي الغفلة عن أصل حجتهم، فلذلك أوردتها، ولا أن يُظنَّ بي أني – وإن سمعتها – لم أفهمها، فلذلك قررتها».

هؤلاء الأشخاص الذين يلتقي بهم الغزالي ويتحاور معهم، يسميهم في كتابه «العلم»، وهو فصل من «إحياء علوم الدين». أقول، يسميهم «رفيقًا». هذا المصطلح له دلالة إيجابية. ويُوضح ذلك أنه رفيق في الطريق على درب البحث عن الحقيقة. ومن الملاحظ أن مؤلفًا يكون لديه مفهوم اليقين كمسألة أساسية، -فريد جبر كتب بالتحديد أطروحة حول مسألة اليقين عند الغزالي- أقول، هذا المؤلف يحتاج إلى الآخر لمعرفة الحقيقة. في «الإحياء»، لا يقتصر إسهام الآخر في البحث عن الحقيقة على معرفة من يكون. بمعنى آخر، يعترف الغزالي في «الإحياء» بأن للآخرين دورًا أساسيًا في معرفة الحقيقة، وقد تكون هذه الحقيقة ذات طابع فلسفي، فيزيائي، رياضي، إلخ. وما هو الموقف الذي يجب أن نتخذه تجاه هذا الآخر الذي يساعدنا على اكتشاف أشعة جديدة للحقيقة؟ يقول الغزالي إنه يجب أن أشكر الرفيق في كل مرة يساعدني فيها على معرفة الحقيقة. مرة أخرى، هذا أمر رائع. ومع ذلك، فإن الموقف الإبستيمولوجي في «المنقذ» مختلف، نظرًا لأن الغاية من دراسته هي دحض المذاهب التي قام بدراستها! في «المنقذ»، يدرس الغزالي المعتقدات أو المذاهب الأخرى لأغراض الاعتذار.

ومع ذلك، فإن في «المنقذ»، وحتى لو كانت الغاية اعتذارية، فإن المنهجية التي يقترحها تؤكد على ضرورة وجود حوار حقيقي لمعرفة الآخر. إنها

منهجية تفتح الباب أمام إمكانية تغيير الرأي حول المعرفة التي نملكها عن الآخر. يؤكد الغزالي أن منهجيته تساعد في تغيير الرأي. يفتح الغزالي أبواب المعرفة بالآخر. هو لا يقيده في فكرة أو حكم. يدعو إلى اكتشاف الآخر بعمق، وتجاوز الأفكار المسبقة أو الأحكام المسبقة التي نملكها.

أحيانا قد تعكس أحكامنا رأيا قديما حول دين ما. وقد ننسى أن أفكار هذا الدين قد تغيّرت في صياغتها، أو أنها كانت محدودة بمنطقة جغرافية معينة. ربما ظهرت مع الزمن توضيحات أو تفاسير يجب أن نأخذها بعين الاعتبار. أريد أن أضرب مثالا قد يكون حساسا قليلا: هل كان اللاهوت لدى المسيحيين الذي يتحدث عنه القرآن هو نفسه اللاهوت لدى المسيحيين في روما في نفس الفترة؟ بالنسبة لمؤرخ العقائد المسيحية، فالإجابة بوضوح سلبية. لا شك. هل يتطابق اللاهوت لدى المسيحيين الذي يتحدث عنه القرآن مع ذاك لدى المسيحيين اليوم؟ الإجابة أيضا سلبية. هذا لا يعني أن ما ينقله القرآن عن إيمان المسيحيين خاطئ. القرآن ينقل ما كان عليه إيمان المسيحيين في زمن النبي محمد في مكة والمدينة.

هذه النظرة إلى التاريخ والسياقات التاريخية ضرورية لتجنب سوء الفهم بشأن الآخر، وهذا ما يمكن أن يؤدي في بعض الأحيان إلى عواقب مأساوية. أريد أن أنبهكم إلى أن هذه الضرورة التي تطرحها الهرمينوطيقا اليوم بشدة، كانت موجودة في فكر الغزالي. إذا كنت سأُلخص ما رأيناه حتى الآن من منهجية الغزالي لمعرفة الآخرين أو لمعرفة تيار ديني، أو مذهب... فإنه يجب مراقبتها، ودراسة كتبها، ومناقشة العلماء، والتحقق من فهمه عند عدة أشخاص ينتمون إلى هذا المذهب.

لكن تجميع هذه المقاربات لا يُغني عن المنهجية الكاملة للغزالي. وعلى قدر ما قد يبدو ذلك غريبا، فإن الغزالي يُشدد على ضرورة التعمق أكثر. بالفعل، فإن المراقبة الخارجية، البعيدة والخفية لطقوس تيار ديني لا تكفي. صحيح أن المراقبة الخارجية توفر الحيادية، ولكن للغزالي، فإنها لا تسمح بالمعرفة العميقة. ومع ذلك، فإنه يبحث عن هذه المعرفة العميقة، أي غير السطحية. هذا الهدف يندرج تماما ضمن الرؤية الصوفية للمعرفة عند الغزالي. وفي هذا السياق، يستخدم الغزالي

مصطلحات صوفية. يستعمل على سبيل المثال مصطلح 'ذوق'.

من هذه الزاوية، يفتح الذوق الباب أمام الحقيقة العميقة: لا يعرف الشخص إلا ما قد ذاقه حقا. وبالتالي، فإن معنى وفهم وعمق الطقس لا يمكن أن يُدرك إلا عندما يشارك الإنسان فيه بنفسه. هذه الضرورة للمشاركة الجسدية في الطقس والالتزام به تُسمى في علم الاجتماع الحديث 'المراقبة المشاركة'.

في الختام، لقد مكنني عملي على منهجية الغزالي من تسليط الضوء على نظرية صارمة وجادة حول المنهجية وكيفية دراسة مذهب ديني أو تقليد فلسفي أو مذهب فقهي أو شرعي.

وقد رأينا في المقدمة أن المسألة المنهجية مهمة للغاية لأنها تمكن الغزالي من تحييد استخدام التكفير. وهي ليست الطريقة الوحيدة التي يستخدمها. لكن المنهجية جزء من استراتيجيته لتحييد التكفير.

من بين المستويات الأخرى للاستراتيجية، هناك الأنثروبولوجيا وتعريف مساواة أنطولوجية بين الناس، بغض النظر عن معتقداتهم. وهناك أيضا المستوى الفقهي، مع تعريف حقوق الجار. عند الغزالي، لا تقتصر هذه الحقوق على ما يسميه حقوق المسلمين، بل تنفتح أيضا على حقوق أخرى وواجبات أخرى، باسم الجيرة. وأما عند الغزالي، فإن تعريف الجار يستند إلى تعريف الحسن البصري. إنه تعريف مكاني وليس طائفيا. الجار هو من يسكن في نطاق أربعين بيتا إلى الشمال، وأربعين بيتا إلى الجنوب، وأربعين بيتا إلى الغرب، وأربعين بيتا إلى الشرق. هذا التعريف ليس طائفيا لأنه يسمح بضم أناس من ديانات مختلفة.

لنرجع إلى موضوع هذا المساء، واللافت للنظر هو حداثة منهجه. فقد وُلد علم الاجتماع في نهاية القرن التاسع عشر. وقد طوّر منهجية متعددة: الملاحظة المباشرة، والتتبع، والقراءات، والمقابلات، والملاحظة بالمشاركة.

وعندما قرأت الغزالي، لاحظت أن كل هذه المنهجيات موجودة في أعماله. بالطبع، لم يُطبق الغزالي هذه المنهجية على معرفة الديانات الأخرى. بل بقي على مستوى العالم الإسلامي، بمذاهبه المختلفة، وطرقه الروحية المتنوعة، وتياراته المتعددة.

ولكن، بسبب ضرورة هذه المنهجية لمعرفة الآخرين، يُحذرنا الغزالي أنه

إذا ظننا أننا نعرف دينا آخر بشكل عميق، فإن الأمر نادرا ما يكون كذلك. وهذا في الحقيقة صعب. سيكون من الصعب على السني أن يشارك في عاشوراء الشيعية، أو على الباطني أن يشارك في القداس مع المسيحيين. ولكن ما هو مهم، في ضوء تعليم الغزالي، هو أننا نعلم الآن أن أحكامنا النظرية والعقلية غير كافية لاستيفاء الحقيقة الدينية للآخرين. يجب أن يساعدنا هذا على تعليق حكمنا السلبي الذي نكون غالبا مندفعين لإصداره بسرعة.

هذا لا يعني أنه لا يتعين علينا إصدار أحكام. الغزالي لا يتردد في إصدار الأحكام، ولكن منهجيته وإبيستيمولوجيته تدعونا إلى أن نكون حذرين ولا نتسرع عندما نحكم على أصحاب الأديان الأخرى.

ولهذا قلت في بداية حديثي: «لا يمكنك أن تنتقد دون أن تعرف». في هذه المنهجية حكمة، وهي أيضا دعوة لنا اليوم، لتعلم كيفية إعادة التفكير في العلاقات مع الآخرين من أجل معرفتهم بشكل أفضل.

من الممكن، وهذا هو أملنا، وأمل الأشخاص المتدينين، أفكر في البابا فرنسيس واية الله العظمى السيستاني والامام الأعظم احمد الطيب.